



قاعدة الإتباع في التصوف الإسلامى وآثارها الإيجابية

د . السيد رزق أحمد الحجر
جامعة القاهرة

تقديم

تكاد سمة «الاتباع» تمثل معلمًا أساسيًا من معالم التصوف الإسلامى منذ بداياته الأولى على يد أولئك الرجال الذين عرفوا باسم الزهاد أو النساك .

وقد ظل الصوفية ـ فيما بعد مرحلة الزهد ـ حريصين على تأكيد هذه السمة التي لا تعني في نظرهم سوى متابعة كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، فالقرآن الكريم والسنة النبوية كانا ـ كما تكشف عن ذلك أقوال الصوفية ـ المصدرين اللذين يجب على كل مسلم ـ فضلا عن كل صوفي ـ أن يزن بهما أقواله وأعماله .

وسوف نحاول في هذا البحث أن نبين ما ترتب على هذه القاعدة ـ قاعدة الاتباع ـ من آثار إيجابية طبعت التصوف بروح قرآنى سنى في مجملة عبر تاريخه الطويل . وتحقيقا لهذا الهدف كان علينا أن نضمن دراستنا لهذا الموضوع ثلاثة مباحث على النحو التالي :

المبحث الأول : الاتباع في حياة الصوفية

ويتضمن هذا المبحث عددًا من النماذج المضيئة التي رسخت بأقوالها وأفعالها قاعدة الاتباع في التصوف ، وغايته التأكيد على أمرين :

أولهما : أن السمة الغالبة على التصوف ـ لا سيما ذلك الاتجاه الذي اصطلح على

تسميته بالاتجاه السني ـ تمثلت في الربط الوثيق بين الحقيقة والشريعة ، وأن ذلك كان انطلاقًا من قاعدة « الاتباع » .

ثانيهما : أن الحالات التي خرجت في بعض الأحيان عن هذه القاعدة كانت من الندرة بحيث لا يصح تعميم حكمها على جمهور الصوفية الذين لا يحصون عددًا . ومع ذلك فقد وقف شيوخ الصوفية بالمرصاد لأي شكل من أشكال الابتداع كما فعل الجنيد ـ على سبيل المثال ـ حين أقصى الحلاج عن مجلسه .

المبحث الثاني : الاتباع والعمل

وسوف نتبين في هذا المبحث أن الصوفية ـ انطلاقًا من قاعدة الاتباع ـ قد ركزوا على الجانب العملي ، ولم تكن عنايتهم بهذا الجانب وقفًا على أعمال الفرائض والنوافل والزهد وتهذيب النفس فحسب ، وإنما اتسع معنى العمل عندهم ليشمل أعمالا ذات طابع دعوي إرشادي ، وأخرى ذات طابع اجتماعى ، وثالثة تدخل في مجال السياسة ومواجهة الحكام ونصحهم ، ورابعة تتعلق بالجهاد ضد أعداء الإسلام وغير ذلك من الأعمال ـ لاسيما الأعمال المتعلقة بالعلم تحصيلاً وتعليمًا ـ التي تبرز الطابع الإيجابي في التصوف الإسلامى وتنفى عن الصوفية تهمة السلبية واعتزال المجتمع .

ولا شك أن آيات القرآن الكريم التي تربط كثيراً بين الإيمان والعمل ، وبين العلم والعمل ـ ومثلها أحاديث النبي الكريم في ذلك ـ كانت الرافد الحقيقي الذي استمد منه الصوفية .

المبحث الثالث : الاتباع والعلم

ويهدف هذا المبحث إلى تأكيد حرص الصوفية على استكمال أنفسهم بتحصيل سائر العلوم والمعارف دون تفرقة بين علوم العقل والنقل ، أو علوم الدراية والرواية ، واعتبارهم هذه العلوم بشقيها أساسًا لا غنى عنه للتحقق بالمعرفة الكشفية ولما كان القرآن الكريم قد تضمن ـ في أول خطاب للرسول ﷺ الدعوة إلى العلم فإن الصوفية في تأكيدهم على قيمة العلم ومكانة العقل ، إنما كانوا يصدرون في ذلك عن قاعدة الاتباع .

ولا شك أن تأكيد هذا الجانب ـ جانب العناية بالعلم عند الصوفية ـ ضروري للكشف عن زيف تلك الدعاوى التي يرددها بعض الباحثين متهمين الصوفية بأنهم لا يأبهون بالعقل ، ولا يجعلون له مكانًا في نظريتهم في المعرفة .

الخاتمة

وسوف تتضمن بعض النتائج والتوصيات التي انتهينا إليها من دراستنا لهذا الموضوع .

المبحث الأول : الاتباع في حياة الصوفية

تكاد سمة الاتباع تمثل معلمًا بارزًا في التصوف الإسلامى ، فقد كان الصوفية في كل ما يصدرون مرتبطين بالقرآن الكريم متابعين لسنة النبى ﷺ وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم ، فالقرآن والسنة كانا ـ فيما أكدته أقوالهم وأفعالهم ـ المصدرين اللذين يجب على كل مسلم أن يزن بهما أقواله وأفعاله ، فإن وافقتهما وإلا رجع وتاب [1] .

والحق أن قاعدة الاتباع تعتبر من الخصائص التي لازمت التصوف الإسلامى في نشأته ، وفي شتى مراحل تطوره ، ولا سيما في ذلك التيار الصوفي الذي اطلق عليه اسم الاتجاه السني .

وحتى أصحاب الاتجاه الآخر ـ الاتجاه الفلسفي ـ الذي ظهر بعد القرن الخامس الهجري ـ نراهم يحرصون كذلك على التأكيد على متابعتهم للقرآن والسنة ، وعلى اقتدائهم بالنبى ﷺ وصحابته الكرام ، ويفسرون آراءهم ونظرياتهم التي عدها جمهور السلف من الابتداع في الدين بتفسيرات ورموز وإشارات تبعدهم ـ فيما يعتقدون ـ عن مفارقة الاتباع .

وإذا تتبعنا أقوال الصوفية في شتى مراحل التاريخ الصوفي لوجدناها تؤكد هذه الحقيقة . فالحسن البصري رضي الله عنه ـ وهو من رجال المرحلة الأولى ـ كان وهو يعانى سكرات الموت يتحدث عن القرآن والسنة فيقول : « اللهم إني قد شددت وضين راحلتى ، وأخذت في أهبة سفرى إلى محل القبر . . . اللهم إني قد بلغت عن رسول الله ، وفسرت من محكم كتابك ما قد صدقه حديث نبيك ، ألا وإني خائف عمرا ، ألا وإني خائف عمرا » بل كان موت واحد من رواة السنة يشبه ـ في قول بعضهم ـ سقوط عضو من جسده [2] .

---

(1) ورد هذا المعنى في أقوال الكثيرين لا سيما الحسن البصري ، انظر حلية الأولياء 2 / 153 وسوف نقف خلال هذه الدراسة على الكثير من الأقوال التي تؤكد هذا المعنى .

(2) انظر : أبو نعيم : حلية الأولياء 3 / 9 .

مثل ذلك ـ وهو كثير ـ يدل على المكانة العظمى للقرآن والسنة لدى الزهاد ويكشف عن مدى حبهم ومتابعتهم لهما .

ومن هذا المنطلق جاءت نظرتهم إلى الدنيا وتهوينهم من شأنها ، وجاءت رؤيتهم للنفس الإنسانية ، وآفاتها وعيوبها وضرورة ترويضها ، وكبح جماحها ، وتخليتها من الرذائل ، وتحليتها بالفضائل .

ومن هذا المنطلق كان تمسكهم الشديد بالفرائض والنوافل وحرصهم عليها ، وقد امتلأت كتب التصوف بأخبارهم في ذلك ، منها ـ على سبيل المثال ـ ما يروى عن الأسود بن زيد النخعي رحمه الله ـ وهو أحد ثمانية من التابعين الذين انتهى إليهم الزهد ـ فقد وصف في العديد من الأقوال بأنه « كان صواما قواما حجاجا ، وأنه كان يختم القرآن في رمضان كل ليلتين ، ويختمه في غير رمضان كل ست ليال ، وكان يصوم حتى يخضر جسده ويَصفرَّ ، ولما سأله علقمة بن قيس : لم تعذب هذا الجسد ؟ قال : راحة هذا الجسد أريد ، وعندما حضرته الوفاة بكى ، فقيل له : ما هذا الجزع ؟ قال : ما لي لا أجزع ، ومن أحق بذلك مني ؟ والله لو أتيت بالمغفرة من الله عز وجل لهمني الحياء منه مما قد صنعته ، إن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنب الصغير فيعفو عنه فلا يزال مستحييا منه » (1) .

ومن ذات المنطلق ـ اتباع القرآن والسنة ـ جاء حديثهم عن الزهد والورع والتقوى والذكر والتحلي بمكارم الأخلاق ، فكانوا دائمًا يربطونها بما ورد ، في معانيها من القرآن الكريم والسنة النبوية وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم ، مما يدل على تمكنهم في الاتباع ، وتحققهم به ، وحرصهم عليه ، ولذلك لم نجد بين الزهاد من نسب إلى بدعة ، ولا كان منهم من انحاز إلى فريق من المسلمين ضد فريق آخر في الخلافات التي نشبت بينهم ، وكانوا ينكرون الخلاف بين المسلمين ويبذلون الحب للجميع . ويعبر الحسن البصري عن ذلك بوضوح في قوله : « لا تكن مع هؤلاء ولا مع هؤلاء ، فقال رجل من أهل الشام ، ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد ؟ فقال : ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد ، ولا مع أمير المؤمنين » (2) .

---

(1) السابق 2 / 103 .

(2) انظر الدكتور عبد الله الشاذلي : مدى انطباق الأفكار الصوفية على الكتاب والسنة رسالة دكتوراه بأصول الدين جامعة الأزهر ص57 .

ولا شك أن دافعهم إلى ذلك كان التمسك بالكتاب والسنة وما تضمنا من أوامر بالاتحاد والاعتصام بحبل الله ونواهٍ عن التفرق والاختلاف . وما جاء فيهما من ذلك مشهور معروف بين المسلمين فلا يحتاج الأمر فيه إلى تطويل .

إن أقوال الزهاد في التأكيد على قاعدة الاتباع مما لا يتسع له المقام ، فقد جاءت كلها على امتداد القرنين الأول والثانى الهجريين في ترسيخ هذه القاعدة .

وعلى طريق الزهاد سار الصوفية ، فلم يكن تحول الزهد ـ خلال القرن الثالث الهجري ـ إلى مذهب له قواعده وأصوله النظرية المعرفية ، وله اسمه الذي تميز به عن غيره من فروع العلم الإسلامى ، أقول لم يكن ذلك ليغير من موقف الصوفيه من قيمة «الاتباع» وأهميته ، وإنما زاد تعلقهم بهذا الأصل ، وعنايتهم به ، وتأكيدهم على الالتزام به كما يكشف عن ذلك ما ورد لهم من أقوال كثيرة حول «الحقيقة والشريعة» وكلها تؤكد على الرباط الوثيق بينهما ، فلا حقيقة عندهم إلا بالتزام الشريعة .

فهذا بشر بن الحارث (ت **227هـ**) يذكر أنه رأى رسول الله ﷺ في منامه ، ويصف ما دار في هذه الرؤيا فيقول : قال ﷺ لى : يا بشر ، أتدرى لم رفعك الله بين أقرانك ؟ قلت : لا يا رسول اله ، قال : باتباعك لسنتى ، وخدمتك للصالحين ، ونصيحتك لإخوانك ، وحبك لأصحابي وأهل بيتي ، هذا هو الذي بلغك منازل الأبرار [(1)] .

وهذا أبو يزيد البسطامى (ت **234هـ**) يقول : لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقي في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي ، وحفظ الحدود ، وأداء الشريعة [(2)] .

ومن أقوال ذي النون المصري (ت **245هـ**) في تأكيده على قاعدة الاتباع قوله : «من علامات المحب لله عز وجل متابعة حبيب الله ﷺ في أخلاقه وأفعاله وأوامره وسننه» . ولما سئل عن المحبة قال : «أن تحب ما أحب الله ، وتبغض ما أبغض الله ، وتفعل الخير كله ، وترفض كل ما يشغل عن الله ، مع العطف للمؤمنين ، والغلظة

---

(1) السهروردي : عوارف المعارف 1 / 85 ، وقارن القشيري : الرسالة : 1 / 82 ـ 85 .
(2) السهروردي : عوارف المعارف 1 / 100 .

للكافرين ، واتباع رسول الله ﷺ » (1) .

وفي حديثه عن الصوفية يذكر أنهم قوم « عقلوا عن الله أمره فشغلوا الجوارح فيما أمروا به . . . وتمسكوا بعصم التنزيل وشرائع السنن » (2) . وفي إحدى وصاياه يؤكد ذو النون على إتقان ما افترض اله تعالى في القلوب والجوارح ، وتجنب ما نهى الله عنه قبل إتقان أى شيء آخر (3) .

وفي نفس المعنى يحدد التستري (ت **283**هـ) أصول التصوف في سبعة أصول : التمسك بكتاب الله ، والاقتداء بسنة رسول الله ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، واجتناب المعاصى ، والتوبة ، وأداء الحقوق ، ومرجعها جميعا الاعتصام بالكتاب والسنة (4) .

كذلك تتأكد قاعدة الاتباع في قول ذي النون المصري : مدار الكلام على أربع ، حب الجليل ، وبغض القليل ، واتباع التنزيل ، وخوف التحويل (5) .

إن المقام قد يطول بنا كثيراً لو تتبعنا أقوال مشاهير الصوفية في تأكيد هذه القاعدة من أمثال الطوسي (ت **378**هـ) والكلاباذى (ت **380** هـ) والمكي (ت **386**هـ) والسلمي (ت **412**هـ) والقشيرى (ت **465**هـ) والغزالي (ت **505**هـ) وغيرهم من أعلام الصوفية الذين حرصوا على ترسيخ معنى الاتباع ، ووقفوا بحسم ضد أى مظهر من مظاهر الابتداع بين الصوفية .

نعم شهد التصوف منذ بدايات القرن الرابع الهجري ظهور بعض البدع ، ومن أمثلها ما شاع في لغة بعضهم من الكلام عن السكر والفناء ، كما في قول الشبلى (ت **334**هـ) : « ما أحوج الناس إلى سكرة » فقلت يا سيدي أي سكرة ؟ فقال : سكرة تفنيهم عن ملاحظة أنفسهم وأفعالهم وأحوالهم ، وأنشأ يقول :

وتحسبني حيّاً وإني لميت وبعضي من الهجران يبكي على بعضي

(1) انظر السيوطي : السر المكنون في مناقب ذي النون ، مخطوط بدار الكتب المصرية ورقة 13 لوحه أ0 وانظر القشيري : الرسالة 1 / 68 .

(2) السابق ، ورقة 21 لوحة ب .

(3) انظر السابق ورقة 22 لوحه ب .

(4) السلم : طبقات الصوفية ص26 .

(5) الشعراني : الطبقات 1 / 60 .

ويقول أيضًا : والله ما أعطيت فيه الرشوة قط ، ولا رضيت بسواه ، ولقد تاه عقلي فيه . وربما قال : غلبت ثمان وعشرين مرة حتى قيل لي مجنون ليلى ، فرضيت . ثم أنشد :

قالوا جننت على ليلى فقلت لهم　　　الحب أيسره ما بالمجانين[1]

من أمثلة هذه البدع كذلك ما دخل على معنى « الولاية » عند الحكيم الترمذى (ت **320** هـ) فقد تزحزح معناها عنده شيئًا ما عن معناها الشرعى ، ففى كتابه « ختم الأولياء » جعل من الولاية نظرية متكاملة أثرت بشكل كبير في كل من تناولها بعده من الصوفية ، حتى إذا انتهت إلى ابن عربى تحولت عنده إلى مذهب خاص في التصوف « صاغه في ثوب رمزى من المصطلحات التي ينفرد بها في « الفصوص » و « الفتوحات » في ضوء مذهبه في وحدة الوجود » [2] .

كذلك شهد القرن الرابع الهجري ظهور ألفاظ غريبة عن التصوف وعن البيئة الإسلامية عامة ، وهى ألفاظ يظهر فيها الأثر الأجنبي بوضوح ، مثل ألفاظ « الناسوت » و « اللاهوت » التي ظهرت - مثلا - في قول الشبلي : الفناء ناسوتي ، والظهور لاهوتي . وفي قول الحلاج :

سبحان من أظهر ناسوته　　　ســــر سنا لاهوته الثاقب

ثم بــــــدا لخلقه ظاهرًا　　　في صورة الآكل الشارب[3]

تلك من غير شك مظاهر تعتبر خروجًا على قاعدة الاتباع ، لكن ما نود تأكيده هنا أن هذه التجاوزات قد وقعت من عدد قليل من الصوفية لدرجة أن واحدًا من أشهر المصنفين في التصوف ، وهو « الهجويرى » يذكر ، وهو يناقش بدعة الحلول ، أنه لم يعرف أحدا من القائلين بها ، وأنه لم يصح عنده شيء إلا من طريق البلاغ [4] .

ورغم قلة عددهم لم يتوان شيوخ الصوفية عن مواجهتهم ورفض بدعهم ،

---

(1) الأصبهاني : الحلية 10 / 372 .

(2) الدكتور محمد الجليند : من قضايا التصوف .

(3) الدكتور حسن الشافعي : فصول في التصوف ص118 والدكتور محمد الجليند : من قضايا التصوف ص67 .

(4) انظر : الدكتور حسن الشافعي : فصول في التصوف .

فالروذباري ـ مثلاً ـ عند ما سئل عمن يبيح لنفسه استماع الملاهي متعللا بأنه وصل إلى المنزلة التي لا تؤثر فيه معها اختلاف الأحوال ، قال : نعم قد وصل ، ولكن وصوله إلى سقر (1) .

والهجويري ينتقد بشدة بدعة « الحلول » في مطلع الباب الذي خصصه لمناقشة أصحاب البدع ، كذلك فعل الطوسي في كتابه « اللمع » حيث بين ما يترتب على « الفناء » من القول بالحلول والاتحاد وانمحاء الصفات البشرية ، وحذر من ذلك وقال : إن البشرية لا تزول عن البشر ، وذكر أن البغداديين قد أخطأوا في قولهم إنهم قد دخلوا في صفات الحق عند فنائهم عن صفات الخلق ، وأن ذلك قد أدى بهم إلى القول بالحلول ، أو إلى مقالة النصارى في المسيح . بل إن الجنيد ـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك ـ قد أقصى الحلاج عن مجلسه عندما أظهر القول بالحلول والاتحاد (2) .

كل ذلك يدلنا على أن حالات الخروج عن قاعدة الاتباع كانت محصورة في عدد قليل من الصوفية ، فكانت بمثابة الشذوذ الذي يؤكد القاعدة ، وعلى ذلك فمن الخطأ المنهجي تعميم حكم هذه القلة على جمهور الصوفية الذين لا يحصون عدداً ، والذين وقف شيوخهم بالمرصاد لأي خروج أو انحراف عن قاعدة الاتباع كما رأينا .

المبحث الثاني : الاتباع والعمل

كان لتمسك الصوفية بالقرآن الكريم والسنة النبوية ، وحرصهم على متابعة النبي ﷺ وصحابته من الآثار الإيجابية ما لا يمكن الإحاطة به في بحث صغير كبحثنا هذا ، فقد أفاض الصوفية في الحديث عن هذه الآثار في مصنفات كثيرة ، مثل الرعاية لحقوق الله للحارث المحاسبي ، والطريق إلى الله لأبي سعيد الخراز ، وقوت القلوب للمكي ، وإحياء علوم الدين للغزالي ، وغير ذلك الكثير والكثير .

وسوف نقف في هذا المبحث على واحد من هذه الآثار ـ التي لازمت التصوف منذ مرحلته الأولى ـ مرحلة الزهد ـ وما أعقبها من مراحل ، ذلك هو الطابع العملي الذي تميزت به الحياة الروحية الإسلامية ، فقد ركز الصوفية على العمل بشتى أشكاله المشروعة ، يستوي عندهم في ذلك أعمال الفرائض والنوافل ، وتهذيب النفس ، وطلب العلم وتعليمه ، إلى جانب أعمال ذات طابع دعوي إرشادي ، وأخرى ذات طابع

(1) الأصبهاني : حلية الأولياء 10 / 356 .
(2) انظر : الدكتور حسن الشافعي فصول في التصوف ص235 .

اجتماعي إصلاحي ، وثالثة تدخل في مجال السياسة ومواجهة أشكال الظلم من بعض الحكام ، ورابعة تتعلق بجهاد أعداء الإسلام كما سنرى أمثلة ذلك كله في حياة الصوفية وأقوالهم وأفعالهم .

والصوفية في تركيزهم على العمل ، كانوا ينطلقون في ذلك من قاعدة « الاتباع » وكانوا يستوحون ما ورد عن العمل وارتباطه بالإيمان في القرآن الكريم والسنة النبوية ، وليس من الصعب أن نقف على هذا المعنى ـ قيمة العمل وارتباطه بالإيمان في القرآن الكريم والسنة النبوية ـ فالقرآن الكريم في حديثه عن الإيمان كان كثيراً ما يربطه بالعمل ، ففى حديثه عن المتقين يصفهم بأنهم : ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (1) وفي خطابه لبني إسرائيل يقول : ﴿وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ، وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ، وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (2) ويقول : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (3) ويقول : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (4) .

هذا الربط بين الإيمان والعمل في القرآن الكريم أكثر من أن يحصى في هذا المقام ـ نلتقي به كذلك في السنة النبوية ، ففي الحديث المتفق عليه « بني الإسلام على خمس . . » يبدأ النبى بأصل الإيمان « شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله » ثم يتبع ذلك بالأعمال « وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة وحج البيت . . الحديث» .

وفي سيرة الرسول وصحابته الكرام رضوان عليهم الكثير مما يؤكد هذا المعنى الذي استوعبه الصوفية ، وانطلقوا منه إلى العمل في إطار الشرع الحنيف الذي لم يفصل في القبول وحسن الثواب بين الأعمال المفروضة وغيرها من أعمال الخير ، فاجتهدوا في العبادات فرائضها وسننها ، وأحوالهم في أعمال العبادات مشهورة حتى أن البعض

(1) البقرة : 3 .
(2) البقرة : 41 ـ 43 .
(3) البقرة : 153 .
(4) البقرة : 277 ـ 278 .

أخذ عليهم غلوهم في ذلك وشدتهم على أنفسهم إلى حد الخروج عن مطلوب الشرع .

وفي ظني أن من عابوا عليهم ذلك لم يضعوا في اعتبارهم تلك الظروف الاجتماعية والدينية التي صاحبت نشأة التصوف ؛ إذ كانت مغالاتهم في العبادة بسبب ما شاهدوه من تساهل غيرهم في أمور الدين ، وتكالبهم على الدنيا بعدما آفاء الله عليهم من خيراتها .

يوضح ذلك قول ابن خلدون ـ رحمه الله ـ « علم التصوف من العلوم الشرعية الحادثة في الملة ، وأصله عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريق الحق والهداية ، وأصلها العكوف على العبادة ، والانقطاع إلى الله تعالى ، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة ، وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف . فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده ، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة » (1) .

إذا تركنا مجال العبادة عند الصوفية بما يشمله من أعمال الفرائض والنوافل والمجاهدة في تزكية النفس وتربيتها وتزيينها بمكارم الأخلاق ، وتدريبها على الزهد في الدنيا ، والحرص على كل أعمال الخير التي جاء بها الشرع الإسلامي ـ إذا تركنا هذا المجال فإننا نتوقف معهم في ميدان آخر من ميادين العمل وهو الاشتغال بالعلم تحصيلا وتعليمًا ، وسوف نتبين أنهم كانوا ـ زهادًا وصوفية ـ من فرسان هذا الميدان ورجاله المبرزين .

ومن يراجع تراجم العلماء الذين قادوا الحركة العلمية الإسلامية ، فإنه سوف يتبين أن رجال الزهد والتصوف كانوا في مقدمتهم ، وأنهم كانوا من العلماء العاملين في مختلف العلوم الإسلامية ، سواء تلك التي كانت دينية في موضوعها وغايتها ، كالتفسير وعلوم القرآن والحديث والفقه وأصوله ، أو كانت دينية في غايتها كعلوم اللغة .

ولا أظن أحدا يستطيع أن ينكر المكانة العلمية البارزة التي ارتقى إليها أمثال

(1) مقدمة ابن خلدون القاهرة ص328 .

الحسن البصري وسعيد بن المسيب (ت 94هـ) وسفيان بن عينية ، والفضيل بن عياض (187هـ) ، وعبد الله بن المبارك (ت 181هـ) ، والحارث المحاسبي (ت 243هـ) والجنيد ، وذو النون المصري (245هـ) ، والمكي (ت 386هـ) ، والغزالي وغيرهم والواقع أن عناية الصوفية بالعمل العلمي قد بدأت في وقت مبكر من تاريخ التصوف ، فمنذ مرحلة الزهد كان الزهاد والأوائل يتصدرون حلقات العلم .

ففى حلقة الفقهاء نجد سليمان بن يسار (ت 107هـ) أحد فقهاء المدينة ، وهو ممن رووا أحاديث الرسول ﷺ عن أبى هريرة وابن عباس وابن عمر ، وأم سلمة رضى الله عنهم [1] . كما نجد الإمام الذائع الصيت أبا حنيفة النعمان (ت 150هـ) الذي اشتهر بالورع والزهد والتفكير والصمت ، ومما أثر عنه قوله : من أوتى الصمت والزهد فقد أوتى العلم كله .

وفي حلقة النحاة نلتقى « الفراء » النحوى الكوفي ، وقد كان ـ مع شهرته في العلم من أشهر زهاد مدرسته ، وكذا الخليل بن أحمد (ت 170هـ) ـ واضع علم العروض ، وقد وصفه المؤرخون وأصحاب التراجم بأنه « أحد الزهاد في الدنيا ، والمنقطعين إلى العلم » [2] .

هناك مجال ثالث للعمل أجاد فيه الصوفية وأحسنوا القيام به ، وهو مجال الدعوة والنصح للأمة ؛ حكامها وعلمائها وعامتها ، وهنا يبرز دور أمثال الحسن البصري ، وسعيد بن المسيب ، وإبراهيم بن أدهم وشقيق البلخي وغيرهم ممن لا يتسع له المقام . ففى مقام النصح للأمة بجميع طبقاتها من حكام ومحكومين تأتي ـ على سبيل المثال ـ نصيحة الحسن البصري وموعظته لعمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنهما ـ في رسالة بعث بها إليه ، وفيها قوله :

« اعلم أن التفكير يدعو إلى الخير والعمل به ، والندم على الشر يدعو إلى تركه ، وليس ما يفنى وإن كان كثيراً يعدل ما يبقى وإن كان طلبه عزيزاً ، واحتمال المؤونة المنقطعة التي تعقب الراحة الطويلة خير من تعجيل راحة منقطعة تعقب مؤونة باقية ، فاحذر هذه الدار الصارعة الخادعة الخاتلة التي قد تزينت بخدعها ، وغرت بغرورها ،

(1) الأصبهاني : حلية الأولياء 2 / 190 .

(2) للوقوف على المزيد من التفاصيل عن أحوال الزهاد والصوفية العلماء انظر الدكتور عبد الله الشاذلي : مدى انطباق الأفكار الصوفية على الكتاب والسنة ص30 وما بعدها .

وقتلت أهلها بأملها ، وتشوفت لخُطَّابها فأصبحت كالعروس المجلوة . العيون إليها ناظرة ، والنفوس لها عاشقة . . . وهى لأزواجها كلهم قاتلة » .

ثم يذكر الحسن في نفس الرسالة أن عشاق الدنيا صنفان « فعاشق قد ظفر بها واغتر وطغى ، ونسى المبدأ والمعاد فشغل بها لبُّه ، وذهب فيها عقله حتى زلت عنها قدمه . . . وآخر مات قبل أن يظفر منها بحاجته ، فذهب بكربه وغمه ، لم يدرك منها ما طلب ، ولم يرح نفسه من التعب والنصب ، خرجا جميعًا بغير زاد ، وقدما على غير مهاد ، فاحذرها الحذر كله ، فإنها مثل الحية لين مسُّهَا ، وسمها يقتل ، فأعرض عَما يعجبك فيها لقلة ما يصحبك منها » (1) .

وفي نصحه لعامة المسلمين تأتى رواية أبى عبيدة سعيد بن زربى التي يقول فيها : « سمعت الحسن يعظ أصحابة فيقول : إن الدنيا دار عمل ، من صحبها بالنقص لها والزهادة فيها سعد بها ونفعته صحبتها ، ومن صحبها على الرغبة فيها والمحبة لها شقى بها ، وأجحف بحظه من الله عز وجل ، ثم أسلمته إلى ما لا صبر له عليه ، ولا طاقة له به من عذاب الله » (2) . وفي مقام المعارضة للظلمة من الحكام والأمراء ينصح سعيد بن المسيب ـ رحمه الله ـ أصحابه فيقول : لا تملأوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بإنكار من قلوبكم لكي لا تحبط أعمالكم الصالحة . بل إنه يجهر برفض البيعة للوليد وسليمان ابني عبد الملك ابن مروان ، ويتحمل لذلك الكثير من العنت والظلم (3) .

وأخيراً نصل إلى ميدان الجهاد ، أهم أركان الإسلام ، وذروة سنامه كما وصفه النبى ﷺ ، حيث نشاهد القوم في مقدمة المجاهدين ، فهذا شقيق البلخي (**194هـ**) يندفع مجاهداً في سبيل الله ، لا يبالي على أي جنب كان في الله مصرعه ، وها هو وقد التحم الجيشان ، وليس هناك إلا سيوف مسلطة ، ورقاب تقطع ، ورؤس تسقط ، يقول لمن جاوره : كيف ترى نفسك ؟ أترى نفسك في حالة تشبه حالتك في الليلة التي زفت فيها امرأتك إليك ؟ فيقول صاحبه : لا والله ، فيقول شقيق : لكنى والله أرى نفسى في هذا اليوم مثل ما كنت في الليلة التي زفت فيها امرأتي إلى ، ثم يموت شهيداً في ساحة

(1) الأصبهاني : حلية الأولياء 2 / 134 .
(2) السابق 2 / 140 .
(3) السابق 2 / 170 .

الجهاد [1] . كذلك خاض حاتم الأصم المعارك مجاهدًا في سبيل الله لم يثنه خوف أو فزع ، حتى وقع في أسر الأعداء ، وأصبح قاب قوسين أو أدنى من القتل ، لكن الله تعالى نجاه منه [2] .

ودون أن نستطرد مع المجاهدين من رجال الزهد والتصوف من أمثال العز بن عبد السلام وغيره ، أشير إلى أني قد أطلت بعض الشيء في بيان هذا الجانب العملي عند الصوفية لأبرئ ساحتهم مما نسب إليهم من تهم وصفوا فيها بالسلبية والبعد عن قضايا مجتمعاتهم واعتزال هذه المجتمعات . وهذا أمر قد يزداد وضوحًا في المبحث التالي .

المبحث الثالث : الاتباع والإعلاء من قيم العلم ومكانة العقل

لقد شاعت لدى بعض المثقفين ، بل لدى عدد من المتخصصين فكرة مؤداها أن الصوفية لا يأبهون بالعقل ، ولا يثقون في أية معرفة لا يكون الذوق أو الكشف طريقًا لها . والحقيقة أن العقل ـ برغم هذه الفكرة الشائعة ، له مكانته التي لا تنكر عند الصوفية ، ويتفق جميع الصوفية الذين شكلوا التيار السني في التصوف ـ على تقدير العقل ، وإعلاء قيمة العلم الحاصل من طريقه .

والإعلاء من شأن العقل والعلم مبدأ إسلامي واضح في القرآن الكريم والسنة النبوية ، لا يحتاج لشهرته إلى تأكيد أو استدلال . وقد احتل هذا المبدأ مكانة بارزة في مرحلة الزهد تجلت في أقوال الكثيرين من الزهاد ، كما تجلت من قبلهم في أقوال الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم .

ومن ذلك ـ على سبيل المثال ـ قول أبى الدرداء رضي الله عنه : « من فقه الرجل ممشاه ومدخله ومخرجه ومجلسه مع أهل العلم » وقوله : « ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ، ولكن الخير أن يعظم حلمك ، ويكثر علمك ، وأن تباري الناس في عبادة الله عز وجل ، فإن أحسنت حمدت الله تعالى ، وإن أسأت استغفرت الله عز وجل » ، وكذلك قوله : « مالى أرى علماءكم يذهبون ، وجهالكم لا يتعلمون ، فإن معلم الخير والمتعلم في الأجر سواء ، ولا خير في سائر الناس بعدهما » وقوله : « الناس

(1) الدكتور عبد الحليم محمود ، مقدمته لكتاب عوارف المعارف للسهروردي 1 / 82 .
(2) السابق 1 / 15 .

ثلاثة ؛ عالم ، ومتعلم ، والثالث همج لا خير فيه» (1) .

هذه الروح المحبة للعلم والداعية إليه قد سرت بين الزهاد ثم بين الصوفية الذين عبروا عنها في أقوالهم ، وفي نصائحهم لأتباعهم ، تلك النصائح التي أكدوا فيها أن المريد يحتاج في سفره إلى علم يسوسه ، وورع يحجزه ، ووجد يحمله ، وخلق يصونه ، وأن مجاهدة العلم ـ كما يقول البسطامي ـ أشد من مجاهدة النفس (2) .

وكثيراً ما حذر الصوفية من العابد الجاهل ، ونصحوا المريدين ـ كما فعل ذلك يحيى بن معاذ الرازي ، وسهل التستري ـ « ألا يصحبوا جاهلا ، ولو ارتدى زي الصوفية وانخرط فيه» (3) .

ولا أظن أحدًا أدرك قيمة العلم والعقل وكونهما من نعم الله على الإنسان بأكثر مما أفصح عنه ذو النون المصري في قوله : « ما خلع الله على عبد من عبيده خلعة أحسن من العقل ، ولا قلده قلادة أجمل من العلم ، ولا زينه بزينة أفضل من الحلم ، وكمال ذلك كله بالتقوى» (4) بل إن العقل عنده أساس الإدراك لجميع الأشياء ، كما عبر عن ذلك ـ فيما يحكيه عنه الخواص في قوله : « سمعت ذا النون يقول : من أدرك طريق الآخرة ، فليكثر مساءلة الحكماء ومشاورتهم ، وليكن أول شيء تسأل عنه العقل ، لأن جميع الأشياء لا تدرك إلا بالعقل ، وإذا أردت الخدمة فاعقل لمن تخدم ثم اخدم» (5) .

« ولا شك أن الوقوف بالعقل عند الميادين المتاحة له ، وعدم الزج به فيما ليس في مقدوره يعتبر احترامًا للعقل وتقديراً له ، وذلك ما عبر عنه ذو النون في قوله : سلْ ما بدا لك من أمره ونهيه ، وتلق ذلك بالتسليم والرضا والخضوع ، ولا تتعقب بعقلك ما أخفى عنك من أسراره ، مثل القدر وغيره ، فإن الله يفعل ما يشاء ، ويحكم ما

(1) الأصبهاني : حلية الأولياء ـ ترجمة أبى الدرداء ص208 ـ 227 .
(2) انظر الغزالي : منهاج العابدين ص13 والطوسي : اللمع ص242 .
(3) انظر : الشعراني : الطبقات 1 / 71 .
(4) السيوطي : السر المكنون 00 ورقة 26 لوحة أ .
(5) السابق ورقة 19 – أ وقارن ابن الجوزي : صفة الصفوة 4 / 367 ، ود . كمال جعفر : من التراث الصوفي 1 / 223 .

يريد» [1] فهو بذلك يغلق بابا واسعًا من أبواب الابتداع في الدين .

ولقد بالغ يوسف بن الحسين الرازي في تقدير قيمة العقل ؛ إذ لم يقف به عند وظائفه العادية من التفكير والتعلم والاعتبار ، وإنما أثبت له وجودًا في عمق الطريق الصوفي ، وفي أحوال السالكين ومنازلهم . يقول في ذلك : «أصل العقل الصمت ، وباطن العقل كتمان السر ، وظاهر العقل الاقتداء بالسنة» [2] .

وإذا كان الاعتبار أو «الاستبصار» يتأتى للعبد من طريق إعماله لما أنعم الله عليه من السمع والبصر والفؤاد ، وكان للصوفية اهتمام وعناية بالنظر في مخلوقات الله ، والاعتبار بما فيها من دلائل القدرة والحكمة الإلهيين ، فإن ذلك يدلنا على مدى اهتمام الصوفية بالعقل وتقديرهم له .

وتتجلى عناية الصوفية بالاعتبار أو الاستبصار كطريق للمعرفة فيما يحكيه ذو النون ، مما وعظه به أحد شيوخه ، وجاء فيه أن «الزاهد في الدنيا قوته ما وجد ، والاعتبار فكره . . والعقل دليله» [3] وفي قول ذي النون يصف «خالصة من عباد الله» بأنهم «أبصروا فنظروا ، فلما نظروا عقلوا فلما عقلوا علموا ، فلما علموا عملوا ، فلما عملوا انتفعوا ، فلما انتفعوا نفعوا ، فلما نفعوا رفع الحجاب فيما بينهم وبينه ، فنظروا بأبصار قلوبهم إلى ما أدخر لهم من خفى محجوب الغيوب» [4] وهكذا كان العقل والعلم والعمل علامات بارزة في الطريق الموصل إلى الكشف ، أو المعرفة الذوقية المباشرة .

والحق أن أقوال الصوفية وآراءهم في الاعتبار بمخلوقات الله تعالى ـ وفيها دلالة على احتفاء الصوفية بالعقل وبالعلوم الكسبية كجانب ضروري في الطريق إلى المعرفة الكشفية ـ تمثل جزءًا من عناية كثير من المفكرين المسلمين بهذه الطريقة ودفاعهم عنها ، كما يبدو ذلك في تراث علماء السلف ، ومن ساروا على طريقتهم ، وقد ظلت تحتل مكانة مهمة في التفكير الإسلامى الأصيل ، كما يوضح ذلك تراث الإمام ابن تيمية

(1) السيوطي : السر المكنون ورقة 19 ـ أ .
(2) السلمي : طبقات الصوفية ص189 ـ 286 .
(3) السيوطي : السر المكنون 00 ورقة 10 ـ أ ، ب .
(4) السابق ، ورقم 38 ـ أ وقارن الخراز – الطريق إلى الله ص45 والغزالي : إحياء علوم الدين 1 / 141 ، والطوسي : اللمع 381 .

ومن ساروا على نهجه كابن القيم وابن الوزير اليمني وغيرهما ممن تمسكوا بمنهج السلف (1) .

لكن الصوفية أنفسهم قد نبهوا إلى أن طريقهم إلى المعرفة يختلف عن طريق المتكلمين وغيرهم من النظار ، في تفرقتهم المشهورة بين « الكسب » و« الوهب » كما جاء في قول ذي النون : « العطايا مواهب ، والطاعات مكاسب ، والناس رجلان ، دارج وواصل ، فالدارج سائر على طريق الإيمان ، والواصل طائر بقوة المعرفة ، ولكل دليل ، دليل الإيمان العلم ، ودليل المعرفة الله تعالى ، فمتى يلحق السائر الطائر » (2) . وقريب من هذا المعنى قول الشلبي (**334**هـ) : « الألسنة ثلاثة : لسان علم ، ولسان حق ، ولسان حقيقة ، فلسان العلم ما تأدى إلينا بالوسائط ، ولسان الحقيقة ما أوصل الله تعالى من الأسرار بلا واسطة . ولسان الحق فليس له طريق » (3) .

فهذه تفرقة الصوفية بين العلوم الكسبية والمعارف الوهبية ، ويزيدها الغزالي (**505**هـ) وضوحًا إذ يبين أن طريق الصوفية في المعرفة يباين طرق النظار من أهل العلم ، حيث يقوم على « تقديم المجاهدة بمحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكل الهمة على الله تعالى » وحينئذ تفيض الرحمة على الصوفي ، وينكشف له سر الملكوت ، وتظهر له الحقائق . « وليس عليه إلا الاستعداد بالتصفية المجردة وإحضار النية ، مع الإرادة الصادقة ، والتعطش التام ، والترصد بالانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة » (4) .

أما النظار فإنهم ، رغم مخالفتهم الصوفية ، لم ينكروا ـ فيما يقول الغزالي ـ وجود هذا الطريق ، وإفضائه إلى المقصد ، ولكنهم « استوعروا هذا الطريق ، واستبعدوا إفضاءه إلى المقصود ، وزعموا أن محو العلائق إلى ذلك الحد بالاجتهاد كالممتنع ، وإن حصل

---

(1) ألف ابن مسرة رسالة في الاعتبار ، واهتم بطريقة الاعتبار بعض فلاسفة المسلمين مثل الكندي الذي جعلها إحدى الطرق للاستدلال على وجود الله عز وجل ، وانظر عن هذه الطريقة الدكتور ، كمال جعفر : التصوف : ص203 ، وله أيضًا من التراث الصوفي 1 / 223 .

(2) السيوطي : السر المكنون 00 ورقة 16 .

(3) انظر الطوسي : اللمع ص287 ، وابن القيم : مدارج السالكين ، تحقيق محمد حامد الفقي ، ط السنة المحمدية سنة 1956 ، 3 / 165 .

(4) ميزان العمل ، طبقة الجندى بمصر سنة 1973 ص45 .

في حال فثباته أبعد منه» [1] .

فهل معنى هذه التفرقة أن الصوفية يغفلون العقل ، أو يرفضونه تمامًا كطريق للعلم ؟ ، إن بعض الباحثين يرون الأمر على هذا النحو ، فالصوفية في رأيهم يرفضون العقل ، ويخرجونه من طريق معرفتهم ، ويستدلون على ذلك بما أثر عن بعض الصوفية من أقوال حول العقل ووصفه بالعجز عن المعرفة ، وبناء على هذا الأقوال أعلن أحدهم أن الصوفية « لا اعتبار عندهم لتحصيل الحواس والعقول» [2] . ومما استدل به على هذا الحكم القاطع ، ما حكاه الطوسي عن أبى الحسين النوري وهو أنه قيل له : «بم عرفت الله ؟ فقال : بالله ، قيل ، فما بال العقل ؟ قال : العقل عاجز لا يدل إلا على عاجز مثله ، لما خلق الله العقل قال له : من أنا ؟ فسكت ، فكحله بنور الوحدانية فقال : أنت الله ، فلم يكن للعقل أن يعرف الله إلا بالله» [3] .

فهل يدل هذا النص على أن الصوفية لا اعتبار عندهم لتحصيل الحواس والعقول؟

إننا لو تدبرنا هذا النص لوجدناه ـ على عكس ما يقول ـ ماثل تماما في الطريق الصوفي ، فهو الذي يعرف « فلم يكن للعقل أن يعرف الله إلا بالله» فقد أثبت النص أن العقل يعرف الله ، وسواء كان ما يعرفه العقل يأتيه من قبل الله تعالى ، أو من مصدر آخر ، فإن المهم هنا أن العقل هو الذي يعرف ، وأن له الصلاحية لهذه المعرفة ، فحين كحله الله بنور الوحدانية ـ كما ورد في النص ـ عرف الله ، وانطلق معلنا : أنت الله .

وإذا كان ما يعرفه العقل مما يأتيه عن طريق الحواس لا يغض من شأنه ، فهل يغض من شأنه إذا كان ما يعرفه آتيا من قبل الله سبحانه وتعالى ؟! . وعلى هذا لا يبدو دقيقا في نظرنا قول باحث آخر أن « المحبة الإلهية وحدها ـ لا التعقل والنظر ـ في رأى الصوفية هي الطريق الوحيد الموصل إلى تلك المعرفة» [4] .

وشبيه بهذا الرأى في المعرفة الصوفية ما وصفها الأستاذ الدكتور النشار ، وهو أنها منهج جديد قدمه الصوفية ، وأسموه أولا الاستنباط القرآني ، بمعنى أن يردد

(1) السابق ص46 وقارن السهروردي : عوارف المعارف 1 / 186 .
(2) الدكتور راجح كردي : نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة ، رسالة دكتوراه بدار العلوم ص616 .
(3) السابق نفس الموضع ، والنص مذكور في التعرف ، وفي اللمع ص63 .
(4) الدكتور جلال شرف : خصائص الحياة الروحية في مدرسة بغداد دار الفكر الجامعي سنة 1977 ص150 .

الصوفي القرآن مستغرقًا فيه حتى تنفتح له المعاني الإلهية ، ثم ينتقل إلى معاناة العبادة والخلوة ، والتردد بين المقامات الصوفية والأحوال حتى تنقدح المعرفة فيه ، أو تلقى فيه فيتذوقها . والنتيجة لهذا التصور يعلنها سيادته في حسم في قوله « إن الصوفية رفضوا العقل وأسسه رفضًا تامًا » [1] .

ولا شك أن الوقوف على حقيقة المعرفة الصوفية لا تجدي فيه النظرة المتسرعة ، وإنما يحتاج إلى معايشة الصوفية ، والصبر على صحبتهم ، وتفهم أقوالهم حتى يأتي الحكم عليها يقينيا مبنيًا على أقوالهم وتجاربهم .

وحتى لا نطيل في هذه المسألة فإننا نوجز رأينا فيها فيما يلي :

1 ـ إن الأقوال الصوفية التي استدل بها البعض على رفض الصوفية للعقل ليست كافية في الدلالة على ذلك ، وهى ـ من جهة ثانية ـ معارضة بالكثير من الأقوال التي تؤكد على أهمية العقل ومكانته في المعرفة الصوفية ، وقد عرضنا من قبل لبعض هذه الأقوال .

2 ـ إن الصوفية رغم تفرقتهم بين العلم والمعرفة ، في أحوال معينة ـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك ـ فإنهم يربطون بينهما إلى حد يجعل العلم ـ وهو ما سبيله الرواية والدراية ، أو النقل والعقل ـ أساسًا لا غنى عنه للوصول إلى المعرفة . وقد أكد ابن القيم ـ رحمه الله ـ هذه الحقيقة في قوله : « والعلم عند هذه الطائفة استدلال ، والمعرفة ضرورية ، فالعلم له الخبر ، والمعرفة لها العيان ، فالعلم عندهم حجاب على المعرفة ، وإن كان لا يوصل إليها إلا بالعلم ، والعلم لها كالصوان لما تحته ، فهو حجاب عليه ، ولا يوصل إليه إلا منه» [2] .

3 ـ إن معنى ذلك أنهم يقيمون نظريتهم في المعرفة على أساس تتكامل فيه جميع الطاقات البشرية كلها ، روحية وعقلية وإرادية ، فهي عملية يصدق عليها الوصف بأنها «في جملتها مغامرة فدائية تتطلب تمهيدًا نفسيًا شاملاً عن طريق الوسائل الزهدية العديدة ، ومرانا روحيًا مستمرًا ومستضئيا ، ودربة عقلية خاضعة لهذا النطاق الروحي

(1) مناهج البحث لدى مفكري الإسلام ص231 .
(2) مدارج السالكين 3 / 165 .

الذي يترجم عن المستوى الذي وصل إليه نضج الصوفي » [1] .

4 ـ إن هذا الفهم مؤيد بالكثير من أقوال الصوفية في العصور المختلفة ، ومن أمثلتها قول الحارث المحاسبي : « واعلم أنه ما تزين أحد بزينة كالعقل ، ولا لبس ثوبًا أجمل من العلم ، لأنه ما عرف الله إلا بالعقل ، ولا أطيع إلا بالعلم » [2] وقول ذي النون : « وليكن أول شيء تسأل عنه العقل ؛ لأن جميع الأشياء لا تدرك إلا بالعقل ، ومتى أردت الخدمة لله فاعقل لمن تخدم ثم اخدم » [3] . وعلى هذا الأساس حكى الكلاباذي « إجماع الصوفية على أنه لا يعرف الله تعالى إلا ذو عقل ؛ لأن العقل آلة للعبد يعرف به ما عرف ، وهو بنفسه لا يعرف الله تعالى » [4] ونستطيع من جانبنا ـ قياسا على كلام الكلاباذي ـ أن نقول : إن العقل لا يعرف بذاته عالم المحسوسات ، وإنما يعرفه من خلال المنافذ التي جعلها الله تعالى له على هذا العالم ، ولا يغض ذلك من شأن العقل في كلتا الحالتين .

وخلاصة كل ما تقدم أن الإعلاء من قيم العقل والعلم ، والاعتبار كان سمة أساسية من سمات التصوف التي ترسخت فيه خلال مرحلة الزهد ، ثم ازدادت رسوخًا فيما تلاها من مراحل . لذا لم يكن غريبا أن يتعجب عبد الله بن المبارك (**181هـ**) من طالب علم تدعوه نفسه إلى محبة الدنيا مع إيمانه بما حمل من العلم ، لأن العلم في نظره ـ كما هو في نظر جمهور العلماء آنذاك ـ يهدي إلى الترفع عن الدنيا وزينتها ، فلا يمكن الجمع بين كثرة العلم وقلة الخوف والزهد [5] .

5 ـ إن الصوفية لم يتوقفوا عند بيان قيمة العلم وضرورته لسلوك طريقهم ، وإنما كان لهم دور في توجيه العلماء ، وتصحيح مسارهم ، والكشف عما دخل على بعضهم من آفات وعيوب ، فهذا ـ على سبيل المثال ـ « الفضيل بن عياض » (**187هـ**) ينصح كبار العلماء فيطأطئون رؤسهم إجلالا وخجلا ، ففي حديثه إلى « سفيان بن عينية » وهو ـ كما يقول الدكتور عبد الحليم محمود ـ قمة من قمم العلم الإسلامي ـ

(1) المرحوم الدكتور جعفر : من التراث الصوفي 1 / 22 .
(2) المحاسبي : رسالة المسترشدين ، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة ، الطبعة الثانية حلب سنة 1391هـ – 1971م ص97
(3) السيوطي : السر المكنون ورقة 29 .
(4) الكلاباذي : التعرف – ص65 وقارن المحاسبي : رسالة المسترشدين ص97 .
(5) انظر الدكتور عبد الله الشاذلي : مدى انطباق الأفكار الصوفية على الكتاب والسنة ص30 .

يقول : « كنتم معشر العلماء سرجًا للبلاد يستضاء بكم ، فصرتم ظلمة . . وكنتم نجوما يهتدى بكم فصرتم حيرة . . أما يستحي أحدكم من الله إذا أتى إلى هؤلاء الأمراء ، وأخذ من مالهم ، وهو لا يعلم من أين أخذوه . . ثم يسند بعد ذلك ظهره إلى محرابه ويقول : حدثني فلان عن فلان . فطأطأ سفيان رأسه وقال : نستغفر الله ونتوب إليه » (1) .

وعن حملة القرآن الكريم يقول الفضيل : « لا ينبغى لحامل القرآن أن يكون له إلى خلق حاجة ، لا إلى الخلفاء ولا من دونهم . . . ينبغي أن تكون حوائج الخلق كلهم إليه » . ثم يستمر الشيخ متوجهًا إلى العلماء ، واضعًا لهم ما يصح لنا تسميته بـ « دستور العلماء في الإسلام » فيقول : « عالم الآخرة علمه مستور ، وعالم الدنيا علمه منشور ، فاتبعوا عالم الآخرة ، واحذروا عالم الدنيا أن تجالسوه ؛ فإنه يفتنكم بغروره وزخرفته ، ودعواه العلم من غير عمل ؛ أو العمل من غير صدق » . ثم يقول وكأنما يتحدث عن علماء زماننا : « لو أن أهل العلم زهدوا في الدنيا لخضعت لهم رقاب الجبابرة ، وانقادت الناس لهم ، ولكن بذلوا علمهم لأبناء الدنيا ليصيبوا بذلك مما في أيديهم ، فذلوا وهانوا على الناس » (2) .

ولا شك أن الإعلاء من قيمة العلم ومكانة العقل عند الصوفية إنما كان استجابة لتوجيهات القرآن الكريم والسنة النبوية في ذلك . وهذا يعنى أن قاعدة الاتباع كانت منطلقهم في هذا الاتجاه .

الخاتمة

لعلنا قد تمكنا ، في هذه العجالة ، من التأكيد على حقيقتين :

إحداهما : أن الصوفية ـ في مجموعهم ـ كانت لهم قدم راسخة في الحرص على متابعة القرآن الكريم والسنة النبوية والاهتداء بهما ، والاقتداء بسيرة الصحابة رضوان الله عليهم فيما يصدرون من أقوال وأفعال .

ثانيتهما : أن الصوفية في انطلاقهم من قاعدة الاتباع قد أكسبوا التصوف طابعًا إيجابيًا تجلى في الكثير من الجوانب التي عرضنا لُها بشيء من التفصيل خلال هذا

(1) انظر عوارف المعارف ، مقدمة المحققين 1 / 68 .
(2) السابق 1 / 69 .

البحث والتى من أبرزها الحرص على العمل بشتى أشكاله من عبادات ومعاملات وآداب إلى جانب ضروب من الأعمال الاجتماعية التي نفتقر إلى الكثير منها في المجتمعات الإسلامية المعاصرة .

هذا ، ويمكن إيجاز بعض النتائج التي انتهت إليها هذه الدراسة فيما يلي :

أولاً : إن التصوف نشأ نشأة إسلامية ، أو بتعبير أستاذنا الدكتور حسن الشافعي ، نشأ ضرورة لأزمة في المجتمع السني المسلم انبثاقًا من ميراث النبوة المحمدية ، فالنبوة ـ كما يقول بحق ـ لها ثلاث وظائف ، يناط بالأولى ، بلاغ الشرع وبيانه وتعليمه للناس ، ويناط بالثانية تنفيذ الأحكام وتحكيم الشرع ، أي حراسة الدين والدنيا بتعبير فقهاء السياسة المسلمين ، أما الثالثة فهي الخاصة بتزكية النفوس وقيادة الأرواح في طريقها إلى الله تعالى . وتلك الأخيرة هي التي اضطلع بها الصوفية ، وعن هذا الجانب من تراث النبوة صدر التصوف الإسلامي مستمداً الأسوة الحسنة من حياة النبى الكريم ﷺ ، ومن زهد الصحابة والتابعين .

ثانيًا : إن أشكال الخروج عن السمت الإسلامى قد حدثت من عدد قليل ممن نسبوا إلى التصوف ، وليس من المعقول ـ علميًا ومنهجيًا ـ تعميم حكم القلة على جميع الصوفية .

ثالثًا : إنه ليس من الصحيح اتهام الصوفية بالسلبية والعزلة وعدم الاهتمام بشئون المجتمع وقضاياها ؛ فقد بينا في هذا البحث أن الصوفية كثيراً ما قدموا النصح للمسلمين ، حكامهم وعامتهم ، وأنهم كانوا يجهرون بالحق لا يخشون في الله لومة لائم ، وأن الكثيرين منهم شاركوا المسلمين في جهاد الأعداء ؛ إضافة إلى اضطلاعهم بالكثير من أعمال العلم والتربية وإصلاح النفس ، وإسهام القادرين منهم في الكثير من أعمال البر كما بينا نماذج ذلك كله في ثنايا البحث .

رابعًا : إن الادعاء على الصوفية بأنهم يرفضون العلم وينكرون العقل ولا يتركون له مكانا في نظريتهم في المعرفة ، هذا الادعاء ليس بصحيح ؛ فقد تبينا أن الصوفية يؤسسون طريقهم للوصول إلى المعرفة الكشفية على العلوم الكسبية ، ويجعلون العلوم الكسبية أساسًا لا غنى عنه للتحقق بالمعارف الوهبية ، وأنهم يقيمون نظريتهم في المعرفة على أساس تتكامل فيه جميع الطاقات البشرية كلها ، روحية وعقلية وإرادية .

وقد سبق أن أورنا كلام ابن القيم رحمه الله في تأكيد هذه الحقيقة ، فالعلم عند

الصوفية ، وإن كان حجابا على المعرفة ، إلا أنه لا يوصل إليها إلا به ، والعلم ـ كما يقول ـ لها كالصوان لما تحته ، فهو حجاب عليه ، ولا يوصل إليه إلا منه .